22

أرشيفات خفرع عنخ
لقطات من يوميات البعثة الأثرية في الجيزة

الأرشيف كشاهد محايد على الماضى يعد مصدراً لمعرفة العصور والأحداث والناس. ويقود بتتابع الأحداث على لوحة التاريخ الكبيرة إلى منابع الحضارة عبر سلم لانهائى وأن كل وثيقة أو سجل أو ذكريات حية بمثابة شعاع منير يلقي الضوء على مصائر المجتمعات ومؤسسيها، وظواهر التاريخ ومبدعيها. وبعد أن يصل شعاع الضوء إلى الأعماق يتحرك للأمام ثم يرجع من جديد إلى أحداث وإبداعات الماضي. فيعطى كما لوكان محاولا أن يستشرف المستقبل زمن «البُعد الثالث». وعندما وصلنا إلى مدينة الموتى القديمة رأينا كيف تتشابك العصور بصورة مدهشة. فالأرشيفات القديمة التي وضعت منذ خمسة آلاف عاماً تقريباً، عادت إلى الحياة واكتسبت أشكالاً حديثة على مدار آلاف السنين.

يموت الإنسان، ويتوارى الجسد في التراب...
و يختفي كل الأقارب والمعارف ...
ولكن تبقى كتاباته لتذكرنا به على الدوام ...

هكذا قال الكاتب المصري مجهول الاسم الذي تقبع روحه قبل أربعة آلاف عام في مملكة أوزوريس «. قال ذلك قبل هوراس بآلاف السنين الذي كتبت لسطوره الخلود في قصيدة الشاعر الروسي الشهير بوشكين: «لقد صنعت لنفسي تمثالاً لم تصنعة الأيادى».

تعد الجيزة فخراً لمصر على مرّ العصور. ومن بعيد دائما ما تظهر للرائى قمم أهرامات الفراعنة الثلاثة خوفو وخفرع ومنكاورع. و يجلس عند مدخلها تمثال أبو الهول الذي يُعد أضخم تمثال في العالم. أما الأهرامات فهي دائما ما تثير الخيال، وتدهش بعظمتها حتى أولئك الذين على دراية تامة بنظريات التصميم الهندسي و تخلب اللب كذلك بشكلها الفريد. وتعد الأهرامات العجيبة الوحيدة الباقية حتى الآن من عجائب الدنيا السبع، وذلك على الرغم من أنها أقدم من عجائب الدنيا بأكثر من ألفي عام.

فكما يقول المثل العربي :«كل شئ في الدنيا يخشى الزمن ، غير أن الزمن نفسه يخشى الأهرامات» .

إن مدرستنا في علم المصريات ، والتي أرسى حجر أساسها العالم الروسي البارز ف.س. جولينشيف تزخر بالعديد من الأسماء البارزة والاكتشافات العلمية الأثرية ، لم تقم بحفريات مستقلة في مصر . ولكن كان هناك استثناء رائع لبعثة ب . ب . بيوترفسك الذي كان يعمل في جنوب مصر في الفترة من عام ١٩٦٢ـ ١٩٦٣ ، في إطار الحملة التي نظمتها منظمة اليونسكو لإنقاذ الآثار التي تهددها مياه سد أسوان بالغرق . وجاءت نتائج تلك البعثة أكثر من رائعة وكان هناك اهتمام كبير بالآثار التي تم العثور عليها . والآن ينصت جميع أعضاء بعثتنا باهتمام إلى رواية أحد أعضاء تلك البعثة ويدعى نيكولاي ياكوفليفيتش ميربيرت الذي يحكي عن تلك الأيام والبطولات التي حققتها بعثة علماء الآثار الروس .

كم هو عظيم ذلك الفرق بين علم المصريات النظري والعملي ؛ فلقد تعين على أن أتعلم في الأيام الأولى من عملى ، ضمن البعثة الأثرية الفرنسية التي كانت تعمل في منطقة سقارة في عام ١٩٩١ . وقد تم « توزيعى « للعمل في المجموعة الجنائزية للملكات زوجات ملوك الأسرة السادسة . وقد تعلمتُ الكثير وأصبحتُ عالمة مصريات ميدانية ومتخصصة في فترة المملكة القديمة[٦٤٦] . وبعد مرور خمسة أعوام من العمل الميداني المستمر مع الجانب الفرنسي تجرأت للبحث عن عمل مستقل .

لعل أحد أقوى الانطباعات التي تشكلت لدي ، كان التعرف ثم العمل مع شخص أصبح وهو على قيد الحياة ، أسطورة بين علماء المصريات وهو جان فيليب لوير[٦٤٧] . فقد جاء إلى مصر في منتصف العشرينيات . وكمهندس معماري في بعثة س . م. فيرث العالم

٦٤٦ عن مقالة : Архивы Хафраанха. Из археологической экспедиции в Гизе، والتي نشرت بمجلة «الأرشيف الشرقى» ، إصدار معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية للمستشرقة الروسية Kormysheva Eleonora فترة التاريخ المصري القديم من عام ٢٧٢٥ إلى ٢١٧١ ق . م .

٦٤٧ يوجد كتاب للمؤلف جان فيليب لوير بعنوان «أسرار الأهرامات العظيمة» تم ترجمته بإختصار إلى الروسية في موسكو ١٩٦٦ ، وكتب مقدمته أ.س كاتسنيلسون . وقد علم السيد لوير بهذا الكتاب عن طريقي في عام ١٩٩٤ وقد أهديته النسخة الوحيدة التي كنت أكمل بها مجموعة التراجم لهذا الكتاب التي تربو على أكثر من عشرة لغات . وعندما نشر هذا العدد ، كان هناك خبر حزين للغاية يفيد بوفاة جان فيليب لوير ، العضو المراسل لمعهد فرنسا في السادس عشر من مايو/ آب ٢٠٠١ .

الأثرى الإنجليزى البارز في الربع الأول من القرن العشرين، دلف إلى أسفل هرم زوسر[٦٤٨]، وكان أول من شاهد ذلك الذي أصبح واحداً من روائع الفن المصري. وهو صورة الفرعون باللون الأزرق و الأخضر الباهر وهو يقوم بالجرى الجنائزى . وقد حدد هذا الموسم العملي مصير جان فيليب لوير فقد إستقر في سقارة وهناك ولد وترعرع أولاده وبنى منزلاً. هذا المنزل تقوم بإستغلاله الآن اثنتان من البعثات الأثرية الفرنسية التي تقوم بأعمال الحفريات في سقارة بالتناوب وهناك استمر لوير، يمارس عمله. في ذلك الوقت كانت مجموعة زوسر الجنائزية أشهر مكان في منطقة سقارة حالياً عبارة عن أنقاض. وكان من غير الممكن تصديق ذلك، لولا أن السيد لوير قد عرض عليّ الصور القديمة لهذا المكان. فقد بدأ عمله بإحياء المكان بداية من الأعمدة والأروقة وكل حجر، وقام بعمل الحسابات والتقديرات والتأكد من أماكنهم الصحيحة. وفي العام الماضي يكون العالم لوير قد بلغ السابعة والتسعين من عمره. وفي كل عام كان يأتي إلى مصر ويذهب إلى منزله في سقارة، آملاً في أن يتم إصلاحه وترميم هذا المكان الفريد من نوعه في، أسرع وقت ممكن.

ذهبنا في عام ١٩٩٥ مع م. أ تشيجودايف الموظف بمعهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية إلى منطقة الجيزة للاستكشاف؛ آملاً في البحث عن أي مكان صالح لأعمال بعثة الآثار الروسية. وجدنا أن المساحة الشاسعة المحيطة بالأهرامات ما هي إلا جبانة عظيمة، تضم رفات أقارب الملوك الفراعنة وكذلك رفات أولئك الذين بفضل جهودهم بقيت عبادة الفراعنة الموتى مئات السنين. فقد كان النبلاء يحرصون على أن يتم دفنهم بجانب سيدهم وذلك اعتقاداً منهم أن هذا سيزيد من مرتبتهم في العالم الآخر، وأنهم سعيشون الحياة الأبدية مع آلهتهم. وقد ظلت مقابرهم ومعابدهم الجنائزية تؤدى وظيفتها حتى بعد مماتهم وظل كهنة الدفن في خدمتهم. ولم ينس الأبناء الاهتمام والرعاية بمقابر الأجداد. وهكذا تشكلت جبانة عملاقة حول الأهرامات الثلاثة مقسمة إلى قطاعات وأشكال متنوعة للمباني الجنائزية.

٦٤٨ الملك زوسر من ملوك الأسرة الثالثة، حكم مصر من عام ٢٦٧٢- ٢٦٥٣ ق.م وقد بُني له خصيصاً الهرم المدرج الذي يُعد الهرم الوحيد المدرج في مصر والذي لم يتكرر بناؤه مرة أخرى لخلفائه من بعده.

في نهاية عام ١٩٩٥ استطعنا الحصول على تصريح لأعمال البحث والدراسة في مقبرة خفرع عنخ المشرف على هرم خفرع- الهرم الثانى من حيث الحجم [٦٤٩] . ونرى أن اسم هذا الشخص يحمل معنى مقدساً فعند ترجمته نجده يعني : «فليحيا الفرعون خفرع» . وبناء على ما توصل إليه باحثونا فإن هذا الاسم كان من الأسماء التي تنتقل عبر الأسرات . وعلى كل حال فقد انتقل الاسم إلى أحد أبنائه الذي كان يجب عليه أن يخلف والده في منصبه الهام .

تجدر الإشارة إلى أن المشرف على هرم خفرع ، قد دُفن في القطاع الشرقي لجبانة الجيزة في إحدى المقابر الصخرية ، والتي كانت وقت مجيئنا إلى هضبة الجيزة مغطاة بالرمال وكانت معالمها تبدو غير واضحة على سفح التل الذي يهبط مباشرة إلى القرية الصغيرة المجاورة . أما بالنسبة للمقابر المجاورة لمقبرة المشرف ، فقد ظلت محجوبة أسفل طبقة ضخمة من الرمال ، بيد أنه في القرن التاسع عشر شاهد عدد من الرحالة الأوروبيين مثل : ج.سولت وجورج بيرتون وجورج ويلكنسون ونستور لوت مقبرة «خفرع عنخ» ، ولاتزال مخطوطاتهم محفوظة في المكتبة البريطانية ، والمكتبة الوطنية الفرنسية في باريس .

في منتصف القرن التاسع عشر زارت تلك المقبرة بعثة ر. ليبسيوس ، التي قام الرسامان جورج بونومي ، و م. فايدنباخ بمحاكاة النقوش التي تغطي جدران المقبرة . كان الرسامان بارعين للغاية فقد استطاعا بمهارة فائقة نقل أدق التفاصيل في أسلوب الفن المصري القديم . بيد أن أسلوب المحاكاة آنذاك كان يسمح بعمل بعض التعديلات والإصلاحات التي يراها الفنان ضرورية من وجهة نظره . ومثل هذه الظروف اليوم تفتح الباب أمام عملية مراجعة شاملة للمعلومات القديمة . وسرعان ماتعين علينا أن نقتنع بهذا [٦٥٠].

عند تفحصنا المطبوعات القديمة أخذنا على عاتقنا مهمة البحث عن مواد أرشيفية لتحقيق أهداف ثلاثة . أولاً : الحصول على بيانات تأريخية ، ثانياً : معرفة هل تتضمن تلك الصور أشياء لم تصل إلينا حتى الآن ؟ ثالثا : معرفة هل توجد في تلك المذكرات والرسومات التي يفصلها عنها قرن ونصف أية معلومات عن مقابر أخرى بتلك المنطقة ؟ وبات من البديهى أن مقبرة خفرع عنخ ليست وحيدة في هذا المكان .

٦٤٩ تسنى تنظيم وإعداد تلك البعثة الأثرية ١٩٩٧-٢٠٠١ ، بفضل المساعدة العاجلة التي قدمتها بورصة النقد المصرفي في موسكو والبعثة هنا تعرب عن عميق شكرها للأستاذ أ.ف زاخاروف ، رئيس بورصة النقد المصرفي في موسكو .

٦٥٠ تم تقديم تقرير لمؤتمر علماء المصريات يتضمن القوائم التي ورد بها أخطاء وتجاوزات في تفاصيل محاكاة المعالم في بعثة ر.ليبسيوس ، ووردت تلك الأخطاء كذلك في مقالات كورميشيفا . ي . أ ، تشيجودايف . م . إ ، وتوماشيفيتش . أ . ف ، أعمال بعثة الآثار الروسية في الجيزة ١٩٩٦- ١٩٩٨ (نتائج مبدئية) ، مجلة التاريخ القديم ، العدد رقم ١ ، لعام ٢٠٠٠ .

قادنا البحث إلى المكتبة الوطنية البريطانية في لندن، حيث تُحفظ بها مخطوطات جورج بيرتون. وبعد تقديم الأوراق والتصريحات الرسمية المطلوبة أعطوني ملفاً كبيراً مليئاً بالعديد من الرسومات بالقلم الرصاص التي رسمها جورج بيرتون. وفيما يبدو من الرسم أن أول مشهد وقعت عليه عيناي هو مشهد التوديع للعالم الآخر في الجزء السفلي المتواجد في الجانب الشرقي من مدخل المقبرة حيث يقف الشقيقان خفرع وإتيتي. وقد جاء الرسم الكروكي في شكل محيطى بدون إعطاء تفاصيل الملابس التي تُعد في غاية الأهمية بالنسبة لعملية التأريخ. فكما هو الحال الآن فإن موضة الحزام و الملابس والتفاصيل الأخرى للملابس تتغير بسرعة بالغة.

توجهت إلى أكسفورد بعد أن قمتُ بأخذ صورة من هذه الوثيقة القيمة، آملاً في الحصول على مخطوطات جورج ويلكنسون من أرشيف معهد جريفيس، ومعرفة أية معلومات أخرى إضافية عن الحاجز، والكتابة فوق الباب الثانى الوهمى للمقبرة [٦٥١] الذي من الواضح أنه سقط، ويوجد الآن في المتحف المحلي بمدينة ديرهام. وقد تعرفتُ في أكسفورد على عالم المصريات الشهير يارومير مالك مدير معهد جريفيس وصاحب عدة أعمال مهمة من بينها دراسة رائعة عن القطط المصرية. وقد أبدى اهتماماً كبيراً تجاه أبحاثنا ووعد باطلاعنا على مخطوطات جورج ويلكنسون، والحصول على لوحة مع الكتابة. لكن للأسف كان ذلك يتطلب المزيد من الوقت، لأن كل هذه المقتنيات كانت ضمن مجموعة شخصية، وكان من الضروري العودة مرة أخرى [٦٥٢].

٦٥١ كان الجانب الغربي من مقابر موظفي الدولة من القدماء المصريين، يحمل شكل واجهات القصور المغلقة، والاسم العلمي لتلك الأبواب « الأبواب الوهمية » حيث يوجد هنا حد غير مرئي بين عالم الأحياء وعالم الموتى. ففي الجانب الغربي وخلف تلك الأبواب الوهمية تعيش روح المتوفي التي مرت عبر تلك الأبواب إلى المقبرة للحصول على القرابين المقدمة إليها.

٦٥٢ التقينا مع الأستاذ مالك أثناء عمل البعثة في عام ٢٠٠٠، وبعد الذهاب إلى المؤتمر الدولي لعلوم المصريات، الذي عُقد بالقاهرة حضر إلينا الأستاذ مالك والخبير أ. وينتر اللذان عملا طيلة حياتهما كعلماء للآثار في مصر، حضروا إلينا في منطقة الحفريات وشكرونا على السماح لهم برؤية مقبرة خفرع عنخ والحفريات المحيطة بها. وقد ناقشنا معهم طويلاً المشاكل الخاصة بقراءة المواضع الجدلية للنصوص، التأريخ وتفسير النصوص. ولم يتسن لي معرفة تلك الأمور في أرشيف معهد جريفيس. وبعد أول زيارة لي لهذ الأرشف تم إغلاقه علي الفور لعمل الترميمات والإصلاحات ولم يتم فتحه حتى الآن.

استكملنا الرحلة إلى باريس ، حيث ذهبنا إلى المكتبة الوطنية الفرنسية ، والتي يحفظ بها مخطوطات «نيستور لوت» . وكانت هناك خطابات توصية ومباحثات وإستمارات... وأخيراً ، وجدتُ أمامي الملف المطلوب . ولكم كانت دهشتي عندما رأيتُ نفس المشهد الذي كان موجوداً عند المدخل ، على الحائط الشرقي من المقبرة في رسومات نيستور لوت . والسؤال الذي يطرح نفسه الآن : لماذا قام هؤلاء الذين شاهدوا تلك المقبرة في القرن التاسع عشر برسم نفس المشهد الموجود عند مدخل المقبرة ؟ هناك رأيان للرد على هذا السؤال : من الممكن أن يكون باقي المقبرة كان مغطى بالرمال [٦٥٣] ، أو نظراً لعدم تمكن الرحالة من أداء عملهم ؛ لأنه لم يكن معهم أدوات الإضاءة الكافية ، وبالتالي كانوا يكتفون بتسجيل أول مشهد يقع عليه الضوء ،وهو الحائط الشرقي من المقبرة .

وللأسف لم يتم التوصل من خلال المخطوطات الأرشيفية إلى معرفة ، من أطلق على مقبرة «خفرع عنخ» اسم «مقبرة الأرقام» . وهو وصف يتسم بالدقة والوضوح . ويبدو أن هذا المسمى جاء بناءً على الكم الهائل من الأرقام المكتوبة باللغة الهيروغليفية والمنقوشة على الجانب الشرقي من جدار المقبرة ، على هيئة الآلاف من رؤوس الماشية . ووفقاً لمعتقدات المصريين القدماء فقد كانت الكلمة تحتوى على قوة سحرية : فمجرد النطق بالعبارات المناسبة تتحول صور الآلاف من الثيران والماعز والأبقار المنقوشة على جدران المقبرة إلى ماشية حقيقية وتُقدم لخفرع عنخ في العالم الآخر . وعلى حوائط مقابر المصريين القدماء، يوجد العديد من النقوش الخاصة بصور الحيوانات الأليفة ، ومن العجيب أن كل هذا الكم من النقوش مسجل في أرقام .

نلاحظ كذلك أن غالبية علماء المصريات يتوجهون بشكل كبير إلى المجلد الثاني عشر من النادرة البليوجرافية من أعمال بعثة ر. ليبسيوس [٦٥٤] يستقون منها المعلومات، التي قام بتجميعها المتحمسون البروسيون العظام ، في النصف الثاني من القرن

٦٥٣ في بداية عمل البعثة في عام ١٩٩٦ ، التقدم للأمام عند مدخل المقبرة كان يتطلب الحفر لمدة أسبوع على الأقل .

٦٥٤ كارل ليخارد ليبسيس ، كان أول عالم حفريات يقوم بدراسة صحراء الجيزة البعثة البروسية التي ترأسها في الفترة من عام ١٨٤٢- ١٨٤٣ ، لم تقم فقط برفع العلم أعلى هرم خوفو ، تمجيداً للأبحاث والأعمال التي جرت لتلك الأهرامات العظيمة ، بل رسموا الهرم ونشروا كم هائل من المشاهد المتعلقة بمقابر كهنة منطقة الجيزة ، في عدة مجلدات عن تماثيل مصر والنوبة K.R. Lepsius Denkmäler aus Aegypten und Aethiopien. Abt. I–VI. Berlin, 1897–1913.

التاسع عشر، الذين جابوا نهر النيل من المجرى السفلى، إلى الشلال الخامس. وتركوا مخطوطات ورسومات رائعة لكل ماشاهدوه.

إن أرشيف تلك البعثة المحفوظ الآن في برلين، يترك لديك إنطباعاً لا يُنسى. فهناك صور ملونة كثيرة ورائعة للنقوش والرسومات التي رسمها بالألوان أفضل الرسامين في ذلك العصر. وقد بقى بعض من أسماء هؤلاء مدونة على أعمالهم مثل: بونومي، فيدينباخ.... وتعد الألوان أحد الأشياء التي تحدث تأثيرات وانطباعات قوية وليس من السهل علينا اليوم أن نجد صور سليمة ملونة لتلك النقوش. وبالإضافة إلى الأدلة «المادية» تمثل المدونات اليومية قيمة مهمة لا تقل أهمية عن تلك النقوش الملونة؛ لأنها تسجل ما لم تفلح الرسومات في توضيحه. وبالنسبة لنا فقد كان من المهم أن نجد النسخ الأصلية الخاصة بمقبرتنا لكي نفلح في إحياء وإصلاح ما أتلفه الدهر، في تلك الرسومات التي إختفت بالكامل، وكذلك العثور على يوميات إيربكام أحد أعضاء تلك البعثة خاصة وأنه كان قد ترك رسم كروكى بخط اليد لخارطة المكان مع وضع علامات تقليدية للمقابر البارزة من الركام دون الإشارة إلى الإتجاهات الجغرافية، وكان يقدر المسافات بينهم بالخطوات التي تساوي حوالي ٧٥ سم.

في ألمانيا وفي واحدة من أعرق جامعاتها وهى جامعة هايدلبرج، قضت أولجا توماشيفيتش الأستاذ المشارك بكلية التاريخ بجامعة موسكو دورة تدريبية. وقد طلبتُ منها أن تتوجه إلى الدكتور "خ.رينيك" الأمين على الأرشيف. وأن تقوم بمحاولة للعثور على النسخ الأصلية. لم تضع أولجا الوقت الممنوح لها لأجل العمل، وذهبت إلى برلين! ولكن للأسف فإن النسخ الأصلية لبعثة ليبسيوس والخاصة بمقبرتنا فقدت مع جزء من أرشيفه أثناء الحرب العالمية الثانية. وقد أسفنا أشد الأسف لعدم العثور على مخطوطات إيربكام. فإذا ما كانت عملية ترميم الألوان الأولية لمقبرة خفرع عنخ قد تمت بطريقة جيدة على أيدي تشجودايف، بعد دراسة دقيقة لمثيلاتها من باقي مقابر المملكة القديمة، فإن الأمل الأخير في الحصول حتى على خريطة طبوغرافية بدائية للمكان للقيام بالحفريات، قد تبددت للأبد.

أثناء تواجدى في بوسطن، رأيت كيف يحافظون بعناية فائقة على أرشيف بطريرك أثار الجيزة جورج ريزنر. لا أبالغ هنا في القول بأن جورج ريزنر الذي كرر في النصف الأول من القرن العشرين الانجاز غير المسبوق لـ «ر.ليبسيوس»، قد اجتاز مناطق شاسعة في وادي النيل، وترك خلفه أعمالاً ذات قيمة علمية فائقة، ومعلومات لاتقدر بثمن إلى جانب الصور الفوتوغرافية. ومن أهم أعماله : «تاريخ جبانة الجيزة الكبيرة»، وهو كتاب في غاية الأهمية ليس فقط لكل من يعمل في محيط تلك الجبانة، بل ولجميع المتخصصين في تاريخ المملكة القديمة. وتجدر الإشارة إلى أن غالبية أعمال جورج ريزنر قد نشرها تلاميذه بعد مماته. أما فيما يتعلق بعمله في الجيزة فقد نشره هو بنفسه. وبشأن ما ورد عن مقبرتنا في هذا العمل الضخم الذي يناهز الألف صفحة، فقد ورد ذكرها في أربعة سطور فقط [٦٥٥]. وكان من الممكن أن يكون هناك كتابات ورسومات أو صور لهذا المكان. وأود أن أشير هنا إلى أنه بفضل الخدمات الإستثنائية لـ« ريتا فريد» رئيس قسم الشرق الأوسط بمتحف الفنون الجميلة، و «بيتر مانويليان» أمين أرشيف جورج ريزنر فقد حصلتُ على نسخ مصورة من تلك المخطوطات التي خطها جورج ريزنر بيده، وعلب كرتونية سميكة مع صور بنية اللون كانت سائدة في بداية القرن العشرين. وقد وجدت الصور المطلوبة بين تلك الصور ، وحاولت من الذاكرة أن أختار تلك الصور التي تعطى أفضل منظر عام للمكان وكانت النتيجة مخيبة للأمال، فلم تظهر صور جورج ريزنر أكثر من ذلك الذي نراه اليوم من مقابر صخرية ناتئة تحت طبقة الرمل[٦٥٦]. والأمر الأكثر إحباطاً يرتبط بالمنطقة المحيطة بمقبرة خفرع عنخ التي وفقاً للصور برزت وحدها من تحت الرمال، وأن جيرانها قد طُمست بطبقات رملية هائلة حتى الآن.

وشاهدت صورا أخرى وفجأة، وجدتُ نقشا مألوفاً لي من قبل وللعجب فقد كان بنفس التشوهات التي وجدناها اليوم. وللأسف، فليس هناك حاجة إلى الاعتماد هنا على التفاصيل الجديدة التي لم تبق حتى وقتنا هذا .عوضا عن ذلك نجحت في معرفة تاريخ

٦٥٥ إتضح لنا بعد قيامنا بتحليل هذا العمل ، أن جورج ريسنر كاد أن يكون بنفسه داخل تلك المقبرة ، ومن المرجح أن يكون قد أشار إلى ثلاثة مقابر أخرى غيرتلك المقبرة ، وبذلك يكون قد إرتكب نفس الخطأ الذي إرتكبه ر. ليبسيوس كما أشار في كتابه .

٦٥٦ المنطقة التي كنا نعمل بها تضم عدد من المقابر المنحوتة على أحد التلال الصخرية المؤلفة من الحجر الجيري وذلك في النصف الثاني من الألفية الثالثة قبل الميلاد . وقد إندثرت معظم هذه المقابر بسبب العواصف الرملية التي تهب كل يوم على المنطقة وهناك عدد منها قد بقي محفوظاً في مكانه وذلك بحكم الوضع الطبيعي للصخور في المكان .

تلك الصور إذ كان التاريخ مدوناً على الظهر. وبالتالي تجدد الأمل في العثور على شيء ما في المذكرات اليومية لجورج ريزنر ولولا ذلك لاستغرق الأمر عدة سنوات حيث أن كل يوم عمل أثناء البعثة التي إمتدت سنوات عديدة تم تسجيلة بدقة في المذكرات الميدانية التي تشغل الآن رفاً كاملاً. ومعرفة التاريخ سهلت لي مهمة البحث عن المجلد المناسب بل وكذلك الصفحة المناسبة. ولكن أين هي المعلومات الخاصة بمقبرة خفرع عنخ؟ فلا توجد عنها أية معلومات لا في مذكرات أيام عام ١٩٣٦ ولا في المذكرات الميدانية التي تتناول المقابر المجاورة لها. وأصبت بإحباط تام لذا قررتُ سؤال بيتر مانويل عن ذلك الأمر وقال لي إن مقبرة خفرع عنخ لم تكن تدخل حيز إمتياز جامعة هارفارد ولا في متحف بوسطن للفنون الجميلة.. ولهذا السبب لم يترك جورج ريزنر في يومياته أية معلومات ذات صلة بها. ونظراً لأنه باحث لديه ضمير يقظ، فقد سعى إلى الإشارة إلى أكبر قدر ممكن من المقابر في المنطقة القريبة المجاورة، بما فيها منطقة المقابر الصخرية.

بعد أن قمنا بإغلاق الصفحة التاريخية الجغرافية من أرشيف خفرع عنخ، شرعنا في عمل أرشيف خاص بنا. وإلى جانب المهام التقليدية في مثل تلك الأعمال مثل التسجيل المصور والمكتوب للمادة واستخدام أحدث وسائل التقنية في النسخ ومعالجة البيانات فقد وضعنا مهمة جديدة تتمثل في إكتشاف نظام لبرنامج من أجل رسم المحراب المصري القديم ليعكس طريقة وضع الوثائق في المجتمع القديم.

هذا ويعد محراب المقبرة المصرية القديمة، بمثابة الموسوعة الحقيقة لحياة المجتمع. داخل المقبرة شعرنا أننا نغوص في ذلك الزمن السحيق عندما كان أقارب صاحب المقبرة يشيعونه، إلى العالم الآخر ومعه جميع متعلقاته الضرورية، وإعداد مكان لكل فرد من أفراد أسرته في المقبرة ليدفن فيه عندما يقضى نحبه. وإذا لم يدفن هناك، فإن صورته على اللوحة الجدارية تكون بديلاً عنه. وإن النقوش والكتابات المحفورة في الحجر تعود إلى الحياة بفضل سحر الكلمة المنطوقة. ولم يشك أحد في أن قائمة القرابين التي تلاها الكاتب، سوف تذهب إلى صاحب المقبرة في العالم الأخر. وإن السمك والحبوب والطيور المنزلية داخل الأقفاص، والتي تم رسمها داخل ستة سجلات في الجزء الشرقي من المقبرة ستصبح حية وحقيقية من أجل صاحب المقبرة خفرع عنخ الذي يوجد في مدينة الموتى وسيصل إلى خفرع عنخ أيضا تحديداً، وبالأمر عدد ٨٣٥ ثور و٢٢٠ بقرة و٧٦٠ حمار و٢٢٣٥ ماعز و٩٧٤ خروف تم إحصاؤهم في السجلين السفليين على الجانب الشرقى للمقبرة.

كل هذه البيانات سجلها الكُتاب- الموثقون الذين سيدور عنهم الحديث . والشخصيات الرئيسة لنقوش الجدار الشرقي لمحراب خفرع عنخ ، هم أصحاب المقبرة . والكتاب الذين تم تكليفهم بعملية التوثيق . وعلى اليسار رسم شخصين واقفين مكتملى الطول ويوافق طولهما طول الستة سجلات المقابلة . في الأمام رسم صاحب المقبرة ، وهو يقف مائلا بجسده للأمام ، ويثنى رجله اليمنى ، متوكئاً على عصا طويلة . ويوجد منديل في أصابع يده اليسرى بين إصبعي الوسطى والبنصر ، وهذا رمز الأصل النبيل . وقد صور الوجه في الشكل الجانبي والذقن مرتفعة للأمام ، ولديه عينان لوزية الشكل . وملابس خفرع عنخ تكاد تغطى ركبتيه ، كانت حافة حاشية الزي التقليدي للموظف المصري القديم آنذاك- التنورة- منحنية ، وخارجة أعلى الحزام . وهناك وشاح غير عريض ، يعلو كتفه الأيسر كما لو كان يرفرف ويصل إلى فخذيه من الجانبين .

كانت الكتابة تشير أن الواقف أمامنا هو خفرع عنخ «صديق الفرعون والمشرف على كهنة هرم خفرع [٦٥٧] ومن خلف خفرع عنخ يقف أخاه إتيتى والذي تم تصويره على غير العادة بنفس حجم صاحب المقبرة . وتعرفنا الكتابة بشخصية «أخيه الشقيق إتيتى صديق الفرعون ، والمشرف على كهنة هرم خفرع» .

هكذا يقف أمامنا كهنة المعبد الجنائزي لخفرع . و عنهم وعن أولئك الذين شغلوا هذه المناصب أعواماً عديدة في الماضى كتب مؤلف مصري مغمور :

إختفي كهنة الخدمات الجنائزية
وأصبحت مقابرهم في طي النسيان
لكن تتردد أسماؤهم عندما تقرأ الكتب
التي كتبت أثناء حياتهم
وستظل ذكرى من كتبها خالدة على الدوام .

"وكانت الصور البارزة على الجدار الشرقي لمقبرة خفرع عنخ ، تجسد هؤلاء الكُتاب الذين كان لهم الفضل الأكبر في تأليف الكتب المصرية القديمة ، وإنشاء الأرشيفات، والمكتبات . أهم هؤلاء الكتاب : خفرع – أوسركاو ، وتشغل صورته ما يوازي سجل ونصف مما يدل على علو مكانته : وارتفاع شأنه بين باقي زملائه من الكَتبة . وهو يتوجه برأسه نحو خفرع عنخ باسطاً أمامه لفافة بردى . وأمام قدميه توجد لوحة ألوان

٦٥٧ أنظر : خفرع : فرعون وملك مصري يعود للأسرة الرابعة (نهاية القرن السابع والعشرين – مطلع القرن السادس والعشرين ق . م) .

ولفافة مطوية من أوراق البردي. وهذا الشخص يقدم لصاحب المقبرة وثيقة تتعلق بحالة مزرعته. تلك الرسومات تم نقشها لأول مرة في مقابر المملكة القديمة، أثناء عهد الفرعون خفرع الذي كان خفرع عنخ يخدم هرمه. غير أن معظم الرسومات من ذلك النوع يعود تاريخها إلى النصف الثاني من الأسرة الخامسة، وحسب رأينا مقبرة خفرع أيضا .

من الجدير بالذكر، أن وظائف التوثيق والتدوين كانت حكرا على الرجال حتى وإن كانت صاحبة المقبرة سيدة [٦٥٨]، وكان يوجد في النظام العام للإدارة المصرية بالمملكة القديمة موظفيو مختصون بعملية التوثيق والصياغة، وتقديمها إلى صاحب المقبرة. وأوضح لنا تحليل نقوش تلك المقابر أنه كان من الممكن أن يقوم بتلك المهمة أي موظف من موظفي القصر الملكي وموظفي النبلاء. وكانت هناك وظائف أخرى مثل: «حارس الوثائق»، والمشرف على كتبة وثائق الملوك وكتبة مجموعات العاملين، ورئيس كهنة الدفن والتي يمكن أن يشغلها (كما في مثل حالتنا هذه) أحد أبناء المتوفي. وكان من المنطقي حسب عقلية المصري القديم أن يجمع شخص واحد لقبي (وكذلك وظائف) كهنة الدفن و كتبة الوثائق. وكان ذلك مرتبطاً ارتباط مباشر بتصورات المصري القديم عن العالم الآخر، ومراسم العبادات الجنائزية والتي طبقا لها يتم تخصيص منتجات من مزرعة صاحب المقبرة لأجل ضمان العبادة الجنائزية . ويقوم الكتبة بتدوين وإحصاء قائمة ذلك الطلب بدقة بالغة.

في غالبية المقابر التي تتضمن تلك المشاهد، يقوم الموظف بتقديم الوثيقة الجاهزة قابضا على لفة من ورق البردي، وجاثيا بخشوع على ركبتيه أمام صاحب المقبرة. غير أنه في بعض الحالات ترى كتابة هيروغليفية على ورق البردي ويعرف مضمون ذلك المشهد، وفقاً لما يوضحه تحليل مثل هذه الرسومات المماثلة في مقابر المملكة القديمة «بالتفتيش» [٦٥٩] الذي يقوم به صاحب المقبرة. وجرت العادة أن هذه وثيقة تعكس وتصور حالة المزرعة التي ستوفر الثمار للمتوفي، وتعد المماثل لضيعة النبيل مع الفرق بأن سحر الأرقام هنا في نقش المقبرة قادر على زيادة خصوبة الأرض وعدد رؤوس الماشية. وهذه الوثائق محفوظة في أرشيفات خاصة باللغة المصرية القديمة، ويطلق عليها

٦٥٨ - P. Der Manuelian. Presenting the Scroll: Papyrus Documents in Tomb scenes of the Old Kingdom // Studies in Honor of William Kelly Simpson. Boston, 1996, vol. 2, p. 562.

٦٥٩ Ibid., p. 579.

«دار الوثائق» ، التي ظهرت في مصر منذ عصر المملكة القديمة [٦٦٠] . والوثائق المصرية القديمة هى عبارة عن لفافات مطوية من أوراق البردي وهذه اللفافة المطوية تشغل بعض أجزاء النقش البارز على ، حائط مقبرة خفرع عنخ الشرقى . والكتبة المصورين على السجل الثالث والرابع في النقش على الحائط الشرقى لمحراب مقبرة خفرع عنخ بجانب الموثق الذي يقدم لفافة البردى لصاحب المقبرة . هم هؤلاء الذين بفضل جهودهم وضع الأرشيف المقدم لخفرع عنخ الخاص بضيعتة الجنائزية . بين هؤلاء الناس كما في المقابر الأخرى للدولة القديمة من هم على صلة قرابة بصاحب المقبرة ، وأفراد من طبقة الصفوة في مصر القديمة شغلوا هذه الوظيفة . وخلف خفرع «أوسركاو» كاتب حليق الرأس يرتدي ملابس قصيرة ، و يجلس على ركبة واحدة وموجه رأسه مثل الموثق نحو اليسار، ويمسك في يده اليمنى لفافة من أوراق البردي . ويتضح من خلال الكلمات المكتوبة «خفرع عنخ ، وابنه».

كما يوجد ورائه كاتب آخر يمسك بيده الاثنين لفافة كبيرة من البردي وأمامه علبة بها أدوات الكتابة والمحبرة . وتشير الكتابة ذات الصلة بالصورة إلى أن : «الكاتب إيري يقوم بعمل كل شيء». وشكل المحبرة أشبه بقوقعة كبيرة مفتوحة مع فجوات للألوان يعطي دليلاً آخر على أن تأريخ مقبرة خفرع عنخ يرجع إلى عصر الأسرة الخامسة . وقد صورت أدوات الكتابة الخاصة بالكتبة داخل مقابر أسرات المملكة القديمة ، التي تحوي أسماء شخصية ممزوجة بأسماء فراعنة الأسرة الرابعة . في حين أن الكتابات التي أكتشفت على خراطيش الفراعنة تشمل أسماء أفراد الأسرة الخامسة [٦٦١]. أغلب الظن أن مقبرتنا ترجع لعصر الفرعون «ني أوسير» .

أما الصورة التالية للسجل مشوهة المعالم . وبعد ذلك مساحة من المفترض أن تشغلها صورتان لشخصين ولكنها مكشوطة ، يليها شخص يمشي موجهاً وجهه نحو الجهة اليمنى وذو شعر قصير ، وملابسه حتى الركبة والتنورة على شكل مثلث بارز . ويمسك بيده كذلك لفافة من البردي ومكتوب أسفل الصورة : «الكاتب الممتاز إيشينى» .

٦٦٠ كاروستوفسيف . م . أ «كتبة مصر القديمة» ، موسكو ١٩٦٢ ، صـ ٥٠ .

٦٦١ Cherpion N. Mastabas et Hypogées d'ancien Empire. Problème de la datation. Bruxelles, 1989, p.77-78, fig.71.

السجل الثالث يحوي ثلاث صور للكتبة. الكاتب الأول يجلس على ركبة واحدة وينظر بوجهه نحواليسار، وخلف أذنه قلم ويمسك بلفافة بردي بكلتا يديه وترى حتى نهايات جدائل البردى. كان لدى الكاتب شعر قصير، وأمامه حقيبة صغيرة لأدوات الكتابة ومحبرة على شكل القوقعة. ويُدعى رودج كاو وعبارة «إبنه» هو اسم يدل على أن هذا هو أحد أبناء صاحب تلك المقبرة. الكاتب التالي يحمل لقب فقط وصورة الكاتب الذي يجلس خلفه تصحبها عبارة: « الإحصاء من قبل الكاتب ريدينيس لكافة الأشياء». وتوضح الكتابة والشروح المكتوبة ذات الصلة بها مدى شمولية نظام العد والإحصاء لممتلكات المزرعة الجنائزية الذي إنعكس في الأرشيف الخاص بالتوثيق وضعه وسجله الكتبة على ورق البردي؛ ليقدموه إلى صاحب المقبرة. كان الحرص على إلتزام القواعد والدقة في عملية التسجيل وحفظ تلك المدونات في الأرشيفات الخاصة بالمعابد السبب في أن الذخائر التصويرية والنصية للمقابر المصرية القديمة تنحصر في مجموعة محددة من مشاهد وموضوعات مكررة. وكما يوضح تحليل النصوص ذات الصلة فهذه المشاهد يكن أن تشغل أماكن متعددة بالمحراب، ولكن في حالتنا يتلقى خفرع عنخ معلومات موثقة عن حالة المزرعة الجنائزية المخصصة لتحقيق عبادته في بداية طريقه إلى العالم الآخر. ويوجد أعلى ذلك المشهد في السجل الأعلى لصور الجدار الشرقي للمحراب مشهد « الإبحار نحو الغرب». والمشهد يصور مواكب قوارب شراعية عائمة، والتي تقوم بتوصيل التابوت إلى مثواه الأخير. والتالى من حيث الترتيب « قراءة» نقش الحائط يعد مرحلة تقديم الوثائق.

في الصورة التي أمامنا مثلما هو الحال في غالبية الصور، لفافة لاتظهر عليها أية كتابة غير أن محتواها متوقع وبديهي، ويتكشف كاملا في نقوش الجدار الشرقي للمحراب خلف ظهر الموثق والكتبة مباشرة. وهو مشهد الأعمال الزراعية من درس الحبوب ومنظر حصاد الحنطة واستقدام الماشية والطيور المنزلية ومشاهد لصيد الأسماك. ويتداخل فيهم رغم ذلك مشاهد عقاب المذنبين الذين يتعرضون للمراقبة والحساب بصرامة.

انتاج الحبوب كان العمل الرئيس لاقتصاد الضيعة الجنائزية لخفرع عنخ. ويبدو ذلك جلياً من خلال المشاهد المرسومة على الجداريات التي توضح حصاد الحبوب ودرسها. بالإضافة إلى تربية الماشية التي كانت تشغل مكانة كبيرة كما عرفنا سابقا من الأرقام السالف ذكرها بجانب الماشية ضخمة القرون. ويوجد في منتصف السجل الثالث مشهد

يصور الأوز وطائر منزلى آخر داخل القفص ، يحمله الخدم إلى صاحب المقبرة ، ومن المعروف أن طيور الأوز من الأطباق المفضلة لدى المصريين . ومن النادر أن تجد مشهد في محاريب مقابر القدماء المصريين يخلو من رسومات الأوز . وكانت تقدم إلى صاحب المقبرة وهي حية ، وفي نقوش الحائط الجنوبي من المقبرة يوجد بعض منها في أطباق مطهية وجاهزة للاستهلاك. ومشهد صيد الأسماك الذي يوجد في الأسفل من أكثر المشاهد ديناميكية، حيث نرى صيادان يحملان ست سمكات فوق الكتف ، وعليه حبال مربوط بها ثلاث سمكات كبيرة تصل إلى الأرض (السمكة الوسطى ضخمة ورأسها مرفوعة لأعلى، والسمكتان الأولى والثالثة نحيفتان ورأسيهما مرفوعتان لأعلى) وعلى خط القاعدة توجد سمكتان تتجه رأسيهما إلى اليمين . وفي المنتصف يوجد رسم للمشرف وهو يقف متكئا بيده اليمنى على عصا طويلة ، منحنيا قليلا للأمام ، ويثنى رجله اليمنى (مكررا نفس هيئة صاحب المقبرة) . وعلى اليسار مجموعة من ثلاثة صيادين، وعلى يمين المشرف مجموعة من أربعة صيادين . ويجذب الصيادون بكلتا يديهم حبلا مربوط بحافة شبكة صيد السمك . وفي الأسفل شريط يمثل الماء ، والشبكة معلق بها أربعه أثقال لها شكل الكمثرى ، وتحوي الشبكة خمس عشرة سمكة من مختلف الأنواع .

لا يوجد في الحائط الجنوبي من المقبرة أية صور للكتبة . حيث يبدو أن هذا الجزء من الحائط مخصص لعملية إعداد الطعام وطهيه أمام خفرع عنخ وزوجته «خر إن كا» . وهناك مجموعة من الكتبة يحملون بأيديهم لفافات من أوراق البردي ، ويبدو أنهم طبقا لعلم الأنساب أبناء خفرع عنخ حيث يصطفون أمامه في حجمه الطبيعي على الجدار الغربي من المقبرة . ويوجد فوقهم مشهد رمزي جلب الضباع لصاحب المقبرة . وقد تم تربية تلك الحيوانات في بعض مزارع النبلاء المصريين وكانوا آنذاك يأكلون لحومها . وأغلب الظن أن إحصاء هذا النوع من الممتلكات يظهر في هذا المشهد. بالإضافة إلى ذلك سجل الكتبة وأحصوا تلك القرابين التي كانت مخصصة لخفرع عنخ وزوجته على اللوحات – الألواح الأبواب الوهمية[٦٦٢] . من أهم المناظر الرئيسة في تكوين الحائط الغربي تمثال لايأتى تفرده فقط ، أنه منحوت من قطعة من الصخر بل إن التجاويف حيث يوجد التمثال

٦٦٢ كان يتم تصنيع تلك اللوحات – كان الشاهد يصنع من الحجر الجيري ويوضع على نوافذ الأبواب الوهمية ، وجرت العادة على وضعها في نمط واحد ، بحيث يجلس المتوفي صاحب المقبرة (بمفرده أو بصحبة زوجته) أمام مائدة القرابين (الذبيحة) وأمامه جميع أنواع الأطعمة ، وقائمة إضافية بالعروض الجنائزية .

مزينة بموكب سكان القرى، وهم يحملون الهدايا إلى العالم الذي سوف تقر به روح. ولا يوجد مثل هذا المشهد المركب في أية مقبرة أخرى من مقابر القدماء المصريين، على الرغم من أن هذه المشاهد منفردة ومشهورة جدا..

كانت عيون تمثال خفرع عنخ - مستودعاً للروح - مطعمة بشكل رائع. وكانت الحياة الرائعة تتلألأ عدة قرون أمام عيونه الحية في الحجر، والمتجهة صوب الشرق، حيث كانت تؤدى لذلك الهدف ومن أجله أعمال لا نهائية في المزرعة المنفصلة. ومر الوقت واقتحم البعض المقبرة باحثين عن مكان لدفن قريبهم. ولأسباب مجهولة عرفوا هذا المكان، وتمكنوا من الدخول إلى المقبرة وقاموا بعمل همجى وهو تحطيم الجدار الشمالي للمحراب و نحتوا في الصخر. كما تأكدنا من وجود مقبرتين كاملتين وليس قبرا واحدا، وظلت محاريب تلك المقبرتين غير كاملتين وألزمنا إنعدام الديكور والكتابة بذل جهود ثلاثية لإجراء القياسات اللازمة والحسابات والملاحظات البصرية لإجبار تلك الحوائط على الكلام [٦٦٣].

كان الشخص الذي لاغنى عنه هو «يوسف دورنر» نائب مدير المعهد النمساوي للآثار بالقاهرة الذي أمضى سنوات طوال بمصر أجرى خلالها قياسات للعديد من الآثار المصرية القديمة فسرعان ما أصبح الناصح الأمين لنا في كافة الأعمال الطبوغرافية، وصديقا حميما لكل أفراد البعثة. وقد قدم لنا بفضل المزولة التيودوليت السويسرية وشاقول البناء، والذي كتب علية تاريخ الصنع في عام ١٩٠١، معلومات دقيقة عن مستوى جميع الأبنية فوق الأرض وتحت الأرض، مما لعب دورا حاسما في استنتاجاتنا بخصوص تحديد الأماكن و طبيعة وطرق تشييدها. وبعد أن فرغ يوسف من عملة في مقبرة خفرع عنخ، طلب من العمال إزالة طبقة الرمال شمالي مدخل المقبرة، وأخذ معول أحد العمال يهوى للأسفل بطريقة سهلة تستدعي العجب، وسرعان ماحدد فوهة بئر مجهولة. وفي صباح ذلك اليوم في منتصف شهر مايو الشديد الحرارة عام ١٩٩٨ كنا قد اعتقدنا أننا أنهينا عملنا في ذلك القطاع شرق هضبة الجيزة، ولكن اتضح لنا أننا في البداية.

٦٦٣ تم نشر نتائج تلك الأبحاث في :
Kormysheva E. Report on the activity of the Russian Archaeological Mission at Giza, Tomb G 7948, East field, during the season 1998 // Annales du Service des Antiquites de l'Egypte. Le Caire, t. LXXIV; Kormysheva E. Russian Archaeological Mission at Giza, East field, season 1999 //Annales du Service des Antiquites de .l'Egypte. Le Caire, t. LXXV

أنهى «يوسف» مقاييسه وإحصاءاته ، التي شكلت فصلاً متميزاً في أرشيف البعثة. تم الانتهاء من رسومات مقبرة خفرع عنخ ومقبرتين جديدتين تم العثور عليهما بجوارها ، وعلى مايبدو فإن اكتشاف البئر بطريق الصدفة قد أعطى المفتاح لإكتشافات أخرى. وحدث معنا بعد ذلك كثير من الأشياء الطريفة والمثيرة و الغامضة . ففي إحدى غرف الدفن وجدنا جزءا كبيرا من مومياء . وواجهتنا صعوبات عدة لانتشال تلك المومياء لدرجة أننا أصبحنا مثل أبطال فيلم « المومياء» ، الذي عُرض في دار سينما « روسيا» بعد عودتنا إلى موسكو . وكان الشيء الرئيس وغير المتوقع حتى بالنسبة لنا أننا اكتشفنا في الموسمين التاليين أثناء التنقيب أكثر من أربعين مقبرة جديدة ، تقع في الطبقات المتعددة للجبانة ، والتي كانت مكتظة «بالسكان» في نهاية عهد المملكة القديمة .

وقد تم مناقشة مسأله وضع توثيق خاص . ولمزيد من دقة نتائجنا ومصداقيتها إضطررنا لوضع مبادئ للتوصيف وذلك ؛ لأن البطاقات الأثرية العادية لم تكن تلبى طبيعة وخصوصية وكمية المعلومات . والفضل الحقيقي في هذا يعود لزميلنا البولندي عالم الآثار مارك ليميش الذي عمل معنا لموسمين متتاليين ، وقد بذل جهدا وعلما لعمل نظام حقيقى لإحصاء كل أنواع الكنوز التي عثر عليها. وقد قمنا لأول مرة بتطبيقه في نهاية الموسم الميدانى لعام ٢٠٠٠ . وتتلخص فكرة هذا الوصف في تصنيف وحدات التنقيب الرئيسة علي النحو التالي : وحدات كبيرة (منطقة) ، ووحدات صغيرة تدخل في نطاق الكبيرة مثل (محراب ، مقبرة ، وبئر ..إلخ) ، وإقامة أكبر عدد من الروابط الداخلية التي تسمح بظهور النظام ، وإدراج العديد من المعلومات المختلفة في عملية البحث .

نذكر على سبيل المثال أن أقدم مقبرة تصل مساحتها إلى نحو ٢٠٠ متر مربع ، تم تقسيمها إلى مئات الصحائف المسطرة ، وذلك لإمكانية تحديد العلامات الأساسية لعملية التأريخ والتصنيف وعناصر البناء وجرد المقابر . ولم يتسن لنا الإجابة على كافة التساؤلات التي واجهتنا آنذاك . ومنها على سبيل المثال ، حالة الدهشة التي انتابتنا بسبب ذلك الإتجاه المثالي نحو الإتجاهات الأربعة الأصلية لبقايا المحاريب ، ومداخل الأبواب الوهمية ربما ترجع لمعرفتهم الجيدة بعلم الفلك . ولكن لم يستطع أي شخص منا أن يفسر لماذا يتجمد سهم البوصلة على عمق أكثر من ١٢ متراً للمتجه إلى الممر وغرفة الدفن في إتجاه الشمال والجنوب تحت السرير الجنائزي. إذ لم يكن هناك آنذاك جهاز البوصلة ، ولا وسيلة إضاءة ثابتة ، وإنما كل ما هنالك هي المعرفة الظاهرية والمهارات الحسية الفائقة .

يتألف الجزء الذي تم اكتشافة في الجبانة من مقابر مشيدة من الطوب اللبن، مع استخدام أنواع مختلفة من الصخور الطبيعية. ويتضح من خلال شكل البناء وطبيعة غرفة الدفن أنها مبنية لصغار الموظفين بالإدارة المصرية القديمة، وأفراد عائلاتهم بالقرب من مقبرة خفرع عنخ – كبير كهنة الملك خفرع. إن مفهوم جدب هذه البقعة من الجبانة هي مسألة نسبية للغاية. فقد عُثر في بعض المقابر على خشبة وأحيانا مع بقايا ألوان. ومما لاشك فيه أنه كان يتم وضع الموتى داخل توابيت خشبية والتي لم تكن رخيصة الثمن في ذلك الوقت .

أتاح تحليل طبقات الأرض، و طبولوجيا المبانى الجنائزية إجراء تصنيف لمبانى الجبانة الشرقية بالجيزة الخاصة بعصر الدولة القديمة. تم العثور في منطقة الحفريات على ما يلي : -

- مقابر صخرية ذات ثلاثة أو أكثر من الآبار، واتجاهات مختلفة لغرف الدفن تجمع بين اتجاه الشمال – الجنوب لغرفة الدفن الرئيسية، واتجاه الشرق – الغرب لباقي الغرف.
- مقابر صخرية بها مدرجات لنزول التابوت، وهي تحاكي مقابر الملوك إلا أن لها سمات معمارية محددة، يتم إستخدامها فقط مع الأبنية الصخرية ذات المساحة المحدودة.
- محاريب من الطوب اللبن تحمل نفس شكل المقابر الصخرية وبها ساحة للعبادة.
- محاريب من الطوب اللبن.
- محاريب ذات أبواب وهمية مزدوجة .
- آبار للدفن منحوتة داخل الصخر.
- آبار للدفن مبنية من الطوب اللبن والحجر.
- مدافن مشتركة تتألف من غرفة دفن كبرى و مبنى للعبادة.
- مدافن فردية.

توضح الأشكال المعمارية للمقابر أنها تنتمي لطبقات، أقل ثراءً بالمجتمع من أسرة كبير كهنة هرم خفرع. ويتضح لنا كذلك أن هؤلاء الأفراد كانوا يرغبون في الحصول على مدفن قرب مقابر كبار موظفي الدولة المصرية القديمة، على أمل أنهم كما عاشوا بجوارهم في الدنيا سيعيشون بجوارهم أيضا في الآخرة.

مـرت أكثر من خمسـة آلاف عـام منذ أن دوى في تلـك البقعة من الجهة الشـرقية من صحـراء الجيـزة ، البكاء الجنائـزى ، وسمعت تراتيـل الكهنة ، ودقت المطـارق ، وأدوات التجليـخ الخاصـة بالفنانـين ، وصريـر إزميـل الفنان التي كتبـت على جـدران المحاريب النصـوص والنقوش ، نقلا عـن أصول البرديات المحفوظة في الأرشـيفات المصرية القديمة. غـير أن الزمـن لم يـرحم تلك الأرشـيفات . وقد اختفت من زمن طويـل ولكـن الأعمال الفنية المنحوتـة في الحجـر المنقولـة عن تلك الوثائق تتحـدث معنا اليوم ، ولكـن للحقيقة بلغة مغايرة تماما .